البحث العلمي السوسيولوجي بين وهم الاستهلاك المعرفي وحتمية المقاربة الواقعية...

د. قنيفة نورة*

الملخص :

تطرح الساحة التنموية المجتمعية الجزائرية في المرحلة الحالية إفرازات اجتماعية و اقتصادية خطيرة جدا تدعو فعليا إلى البحث وتحليل معطياتها وأبعادها لاسيما ما ارتبط ببعدها الإنساني التنموي وتأثيراته المختلفة على الحياة الاجتماعية للفرد الجزائري....و في الوقت ذاته حدوثها تحت وقع حراك اجتماعي بطيء جدا أهم ما يميّزه هيمنة فكر اجتماعي تقليدي شعبوي مسيّر للحياة الاقتصادية و الاجتماعية ، ولعل الأخطر من ذلك أن كل هذا يحدث في ظل عولمة اقتصادية تنموية فرضت سياساتها على الواقع التنموي الجزائري و انعكست آثارها على الحياة الاجتماعية للأفراد ، بل و أدت إلى انتشار العديد من الظواهر الاجتماعية الخطيرة كالعنف و الجريمة و البطالة و المخدرات...

هذا الواقع دفعنا إلى طرح العديد من التساؤلات الهامة جدا في اعتقادنا،والتي قد تكون كلاسيكية في نظر الكثيرين ، ولكنها شرعية أيضا في الوقت ذاته،لاسيّما وأنها على علاقة مباشرة بالطروحات الفكرية الكلاسيكية التي لم تأخذ بعين الاعتبار خصوصية المجتمع الاجتماعية والثقافية بل كانت مجرد تطبيقات ميكانيكية بفكر غريب اجتماعيا ، وأيضا بدعم فكري إيديولوجي لا واقعي كان له التأثير السلبي على تجسيد تنمية مجتمعية إنسانية حقيقية لعدم قدرة المستورد منه فكريا على ملامسة الواقع الاجتماعي...

وقد نضيف في هذا الإطار بالذات أن واقع المجتمع الجزائري وعدم قدرته على إنجاز التغيّرات الكيفية اللازمة لاجتياز عتبة التخلف و الانطلاق في مسيرة العصرنة و الحداثة ارتبط في اعتقادنا إلى حدّ كبير بعدم مراعاة خصوصية المجتمع الجزائري و جغرافيته الإنسانية و الاجتماعية أين يكون للفرد الجزائري دورا مهما وفعالا بالأخص

* كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة العربي بن مهيدي ، أم البواقي GUenIfa _ NoRa@yahoo.fr .

في عملية التنمية هذه ، وبالتالي ضـرورة تـوفير المعطيـات الأساسـية الـتي تمكّنـه مـن المساهمة الإيجابية في الحركة التنموية أين يوضع موضع قوة يصبح شـريكا فعـالا و في الوقت ذاته يتمتع بكامل الحقوق السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية ...

سنحاول إذا تقديم مقاربة سوسيولوجية معرفية تحليلية لمختلف المـتغيرات التي أثرت على مسار التنمية و التي أفرزت العديد من الظواهر الخطيرة بدءا بـالفقر و البطالة و انتهاكات حقوق الإنسان و غيرها، و التي تستدعي فعليـا البحـث فيهـا و حتمية ملامسـتها واقعيـا بعيـدا عـن أي طـرح إيـديولوجي تـنظيري لا واقعـي مـن جهـة،و في مقابـل ذلـك تقـديم تحليـل معـرفي لواقـع بحثـي سوسـيولوجي كـان بالإمكان أن يساهم واقعيا في معالجـة كـل هـذه الظـواهر شـرط التزامـه بالواقعيـة والابتعاد عن الاستهلاك المعرفي الجاهز...

الكلمات المفتاحية :. البحث السوسيولوجي والواقع المجتمعي . التنمية المجتمعية

Abstract :

The experience of socio – economic development of Algerian society has created many social phenomena very dangerous as crime, unemployment, drugs,..Something that leads us to emphasize the important role of social sciences and especially sociology in this context..

Sociologist as well has faced like an experienced imperative to step empirical research taking into account the specific socio – economic and cultural typiquement traditional Algerian society , and that influence still in the process of development of our society.

Key words: Sociological research and the reality of society, development of society

مقدمة :

لقد واجه المجتمع الجزائري نتيجـة التغيّـرات الآنيـة الـتي ارتبطـت بتجسـيد منظور اجتماعي تنموي رأسمالي مشكلات اقتصـادية تنمويـة حـادّة حملـت معهـا توترات اجتماعية بالغة الخطورة ، فأصبحت الفئات الاجتماعيـة لمهمشـة اقتصـاديا وثقافيا وتعليميا عريضة جدا بل وتهدّد بمزيد من المشـكلات الناجمـة عـن اتسـاع الفجوة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة لاسيّما بين الأغنياء والفقراء ...

ومـن الطبيعـي والحالـة هكـذا أن تنشـأ حقـائق جديـدة علـى أرض الواقـع الاجتمـاعي في اتجاهـات مختلفـة ، وتحديـدا فيمـا يتعلـق بأنمـاط العلاقـات

الاجتماعية السائدة ، فقد أدت رياح التغيير إلى الإخلال بلبنى الثقافية والفكرية وإحداث اختراقات واسعة في المؤسسات الرسمية والشعبية مما أدّى إلى إنتاج ظواهر سلبية عديدة جدا تدعو أي باحث سوسيولوجي إلى طرحها وتحليلها واقعيا لارتباطها بمجموع خصوصيات لاسيما الثقافية منها ، هذا من جهة ، من جهة أخرى ضرورة الابتعاد قدر الإمكان عن أي ممارسة سوسيولوجي كلاسيكية تنظيري مستهلكة بقوالب جاهزة وهمية في الكثير من الحالات لأنها لا تعبّر عن واقع اجتماعي ، بل وتغيب فيها الكثير من الحقائق المجتمعية ، وتهمّش وقد تنتج فكرا سوسيولوجيا مكرّرا ومستنسخا وعاجزا عن طرح بدائل علمية معرفية مفاهيميا وواقيا وقد تؤكد لنا في الكثير من الحالات انسحابا تدريجيا من فضاء علمي موضوعي واقعي كثيرا ما عرف ب « **المزعج** » ...

أولا : موقعية البحث السوسيولوجي بين الاستهلاك المعرفي والخصوصية الثقافية الجزائرية :

مما لا ريب فيه أن الجامعة كانت ومازالت تحتل داخل أي نظام تعليمي أهمية كبيرة ، وبخاصة فيما يتصل بتكوين الإطارات المتوسطة ذات المهارات العلمية العليا ، والمؤهلة لتوظيف المعرفة لخدمة الاحتياجات الاجتماعية والضرورية لإحداث التقدم العلمي والاقتصادي والاجتماعي ، وكذلك بوصفها أداة أساسية في تشكيل خطط التنمية الشاملة وتطويرها... فهي أكثر من مجرد فضاء للتعليم والتعلّم بل هي المفتاح الرئيسي لاتخاذ وتنفيذ العمليات الضرورية لمواجهة تحديات اليوم والغد...[1] .

في هذا الإطار بالذات ، وأمام الدور الحقيقي والفعلي الذي يمكن أن تلعبه العلوم الاجتماعية بشكل عام وعلم الاجتماع بشكل خاص بما ينتجه من معارف علمية في شكل بحوث ودراسات متنوعة المجالات والتخصصات ، لنا أن نتساءل كباحثين وكفاعلين اجتماعيين في الوقت ذاته دائما عن الدور الفعلي والحقيقي لمجموع هذه المعارف العلمية السوسيولوجية المكتسبة منها معرفيا من جهة ، والمنجزة في شكل أبحاث علمية من جهة أخرى عن مدى مساهمتها فعليا وبالأحرى واقعيا في تنمية المجتمع الجزائري في المرحلة الحالية التي تشهد تغيّرات سريعة ومؤثّرة جدًا في الحياة الاجتماعية للأفراد... في مقابل حراك اجتماعي بطيء أهم ما يميّزه هيمنة فكر اجتماعي تقليدي شعبوي مسيّر للحياة الاجتماعية للأفراد وعولمة فكرية أفرزت العديد من التناقضات المجتمعية وفرضت فكرها اجتماعيا...

فإن نحن نظرنا بشكل أكثر عمقا للمجتمع الجزائري ، سنجد الكثير من التغيّرات الاجتماعية العميقة سواء كان ذلك على المستوى الاجتماعي ، أوفي بنية العلاقات الاجتماعية ، مما أدّى إلى تواجد العديد من الظواهر المتشابكة العوامل التي تدعو فعليا إلى البحث والتحليل المعمّق في إطار هذه التغيرات ، والتي تتطلب واقعيا ممارسة علمية ومعرفية خاصة للبحث فيها ومحاولة طرحها علميا ، الأمر الذي جعل الباحث الاجتماعي في مواجهة دائمة لتحديات قوية تفرض عليه من جهة الاتصال المباشر بالعالم الخارجي وتنمية علاقات بحثية في إطار صيرورة خاصة لإعادة تحديد دوره في دراسة هذه الظواهر ، ومن جهة أخرى اكتساب معرفي متطور للتقنيات والمعارف لتحقيق الهدف الذي يسعى إليه دائما ، والمتمثّل في امتلاك الراهن المجتمعي ، وتقديم أبحاث ذات صلة مباشرة بالواقع الاجتماعي تراعي خصوصيته بحيثياته المختلفة السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية والدينية...

فإذا كانت الجامعة الجزائرية في المرحلة الراهنة تسعى فعليا إلى تأسيس علاقات اجتماعية مع محيطها الخارجي يطبعها التعاون الجدلي لتحقيق حدّ أدنى من حاجيات الطلب الاجتماعي في ظل محاولات سياسية تهدف إلى جعل العلاقة بالمحيط الخارجي ذات طابع جدلي يطبعها التعاون المتبادل لدفع عجلة التنمية ، فإن ما نلمسه واقعيا ، لاسيّما في مجال العلوم الاجتماعية ، وبشكل خاص في علم الاجتماع ، ومن خلال تجارب بحثية كثيرة محدودية هذه العلاقة وربّما وفي مواقع كثيرة انعدامها مما يجعلنا في تساؤلٍ دائم ومستمر عن جدوى البحث العلمي الاجتماعي بالكم الهائل الموجود والمُخزّن في مكتبات جامعاتنا من رسائل دكتوراه وماجستير وليسانس (ولو أن مذكرات الليسانس غير معترف بها علميا..) ، وعن مدى تقديمها لمعطى معرفي واقعي ، وهل كانت مجرّد استنساخ معرفي ـ وبالتالي تكرار ـ ما سبق طرحه واستهلاكه معرفيا من نظريات تنموية جاهزة بعيدة عن واقع اجتماعي ثقافي معطى ، أم أن هناك محاولات جادة لكسر الحاجز الاجتماعي المتجسّد بشكل خاص في انغلاق المجتمع أمام البحث السوسيولوجي لاسيما ما ارتبط بالمقدس والسياسية ...؟

إنه ، وبالعودة إلى مرحلة تاريخية هامة من البحث السوسيولوجي ، أكّد الباحث الجزائري **عنصر العياشي** في هذا الإطار بالذات أن أهم عامل يمثّل حاجزا أمام تطور علم الاجتماع في الجزائر هو الموقف العدائي الذي يتخذه المجتمع ، والرفض الذي تقابل به كل محاولة جادة لسبر أغواره وفهم آليات

سيره... فهناك مجالات عديدة في مجتمعنا لا تزال مغلقة أمام البحث الاجتماعي والمعرفة العلمية... هذه المجالات تعتبر مقدّسة وينظر إلى البحث فيها بمثابة تدنيس لها... منها قضايا الاختلال في سير النظام الاجتماعي ، السلطة وآليات السيطرة التي تمارسها طبقات أو شرائح اجتماعية معينة ، مؤسسات الحكم بأجهزتها المختلفة ، العلاقات والسلوك الجنسي ، قضايا العقيدة والممارسات الدينية ، موقع الدين في المجتمع ودوره ، الحركات التي تستعمله وتشكيلتها البشرية وطبيعة خطابها ، الجماعات الهامشية أو المهمشة...في كل هذه المجالات نجد أن رد فعل القوى الاجتماعية التي لها علاقة بهذه المواضيع تجاه الدراسة العلمية يتسم بالرفض أحيانا وبالعداء الصريح أحيانا أخرى...

إنّ ذلك يعبر عن انغلاق المجتمع ورفضه لأن يشكل موضوعا للدراسة والتحليل العلمي المتفحص ، وهي ظاهرة تعبر عن استمرار هيمنة علاقات وذ هنيات منبثقة عن مرحلة تتميز بسيطرة الفكر العالمي...(2).

كان هذا الطرح في مرحلة العشرية السوداء أين أفرزت التغيرات السياسية والاجتماعية ظواهر خاصة وغريبة وفي الوقت ذاته صعبة الطرح والتحليل لانغلاق المجتمع وعدم قدرة البحث الاجتماعي على تجسيد ممارسة سوسيولوجي واقعية ، غير أن هذا الإشكال الخطير المطروح استلزم فعليا وفي المرحلة الحالية ضرورة تجاوزه أمام جملة التغيّرات المستجدة والخطيرة التي يشهدها المجتمع من خلال التقرب أكثر من الحقائق الاجتماعية وبالأحرى الإفرازات الاجتماعية الناتجة عن التغيّر والتغيير الاجتماعيين ، ومحاولة جعل الممارسة البحثية السوسيولوجية واقعية أكثر...

فإن نحن نظرنا إلى تحولات مجتمع ما كنتيجة لما تمخّض عنه هذا المجتمع ، فإنه لا يسعنا إلا أن نذكّر بأن النزعة الأصلية للسوسيولوجيا تتمثل في معاينة الممارسات الاجتماعية ، وهي تتطور بهدف فهمها وتأويلها على ضوء المعنى الذي يقصده الفاعلون أنفسهم.وهذه هي مقاربة **فيبر** للسوسيولوجيا :« نحن نسمي سوسيولوجيا ذلك العلم الذي يرمي إلى الفهم بالتأويل(**deutenverstehen**) للنشاط الاجتماعي ثم إلى التفسير السببي لتطور ونتائج هذا النشاط...(3).

فاللاّوعي بطبيعة المجتمع وبحقائقه الاجتماعية نعتبره وضع خاص وسلبي في ذات الوقت وواقعيا.إلى طرح إشكال أكثر خطورة من الذي طرحه الباحث عنصر العياشي والمتجسّد في مستقبل البحث الاجتماعي في ظلّ العولمة المعرفية العالمية التي ساهمت بشكل جدّي في طرح وتحليل الكثير من الظواهر وتقديمها جاهزة

للاستهلاك المعرفي للكثير من الباحثين الذين لم يستوعبوا المرحلة الآنية من البحث العلمي الاجتماعي التي تستدعي فعليا التفرقة بين ما هومستهلك معرفيا من المواقع الإلكترونية المعرفية ، وبين واقع مجتمعي جزائري حقيقي ذا خصوصية سوسيوثقافية مميّزة تدعو أي باحث اجتماعي إلى البحث فيه وتحليله واقعيا أيضا مع محاولة كسر الحواجز التي تعترضه مهما كانت طبيعتها..فلا يمكن أن ندرس المجتمع الجزائري دون استنطاق الواقع المعاش ومعاينة هذه التحولات واقعيا ...

إنه وفي ظل العولمة المعرفية البحثية هذه والتي فرضت نفسها كقوة معرفية لنا أن نتساءل :« هل نحن فعلا بحاجة إلى نمط معرفي بحثي معيّن... ؟ وما طبيعة العلاقة التي يجب تأسيسها مع المجتمع الخارجي المفتوح بعيدا عن أي ثقافة معرفية استهلاكية نحاول تجسيدها واقعيا رغم اختلاف مكوّناتها ؟ وكيف يمكن للبحث الاجتماعي أن يلعب دوره المنوط بت وإعادة الاعتبار له باعتباره بحثا علميا فكريا له القدرة الفعلية على رسم استراتيجيات تنموية شاملة سيّما وأن مواضيع التنمية والتخلف من أهم المواضيع التي شجعت الباحثين الاجتماعيين للقيام بدراسات اجتماعية ، وعملت على تطور التخصصات في علم الاجتماع بهدف محاولة دراسة أهم العراقيل التي تقف عائقا أمام تنمية وتطور المجتمع...؟ وهل فعلا نحن كباحثين بحاجة إلى إستراتيجية بحثية جديدة لتلبية طموحات الفرد الجزائري بعيدا عن أي أدلجة لوظيفتنا ومن أي نوع ، منطلقنا في ذلك فكر علمي بحثي حر يسعى إلى تحقيق أهداف تنموية على المدى البعيد ...؟

أسئلة هامة قد تستدعي أبحاثا معرفية لمضامين العديدة من الدراسات السوسيولوجية الجزائرية مستقبلا...

ثانيا ـ المعرفة السوسيولوجية وحتمية ملامسة الواقع الاجتماعي:

المنطلق الأساسي لهذا الطرح المعنون بالمعرفة السوسيولوجية وحتمية ملامسة الواقع الاجتماعي هومجموع تأملات فكرية نبعت أساسا من قلق ذاتي معرفي حول وضع البحث الاجتماعي من خلال معاصرتي للكثير من الأحداث والوقائع المختلفة التي عرفتها كطالبة وكأستاذة باحثة ، والذي يدعو(أي الوضع) فعليا إلى البحث في حيثياته لتحديد معالم مستقبله ، ولكنها في الوقت ذاته مشروعة أيضا لأن الهدف الأسمى يبقى محاولة الفهم الموضوعي لما يدور حول الباحث من ظواهر والسعي للتوصل إلى أطروحات منطقية وواقعية في تفسيرها وتقديم الحلول المناسبة لمعالجتها...

فإذا وجد علم لدراسة المجتمعات فإنّه من الضروري ألاّ يتوقّع المرء أن

تكون مهمّة هذا العلم قاصرة على مجرّد ترديد الأفكار غير الممحّصة التي يتوارثها الناس بصدد هذه الظاهرة ، إنما يجب أن يرينا هذا العلم الأمور الاجتماعية على نحو مخالف لما تبدو عليه للعامة. ذلك لأن كل علم من العلوم يهدف إلى الكشف عن بعض الحقائق ، كل حقيقة مكتشفة تتعارض إلى حد كبير أوقليل مع الآراء التي يتناقلها الناس بصددها... »(4).

لقد عبّرت كثيرا من قضايا جامعات الدول النامية عن مظاهر التخلف والتبعية ومعوّقات التنمية والتحديث وقد جاء جزء كبير من هذه المشكلات نتيجة للظروف التاريخية والاستعمارية التي مرت بها هذه المجتمعات ، حيث ورثت جامعاتنا مشكلات اختيار المناهج الدراسية والمقررات الأكاديمية واستيراد النماذج الجامعية الغربية ، والاهتمام بمصادر المعرفة .. ولعل الأهم في كل هذا عدم الاكتراث بوظائف البحث العلمي وأهميته...(5).

فالبحث العلمي يبقى أهم وسيلة للاستعلام والاستقصاء المنظم والدقيق بغرض اكتشاف معلومات أوعلاقات جديدة في محاولة جادة للوصول إلى حقائق جديدة قصد الإسهام في نمو المعرفة الإنسانية... ولأننا نتحدّث عن البحث العلمي الاجتماعي المنتج للكثير من المعارف العلمية ، وفي الوقت ذاته المستهلك أيضا للكثير منها سواء مكتبيا أو إلكترونيا ، ولأننا نطلق في هذا الإطار بالذات من مسلّمة أساسية كون البحث المنطلق الفكري الأساسي لتطوير المعارف العلمية في مجالات متعدّدة ومتنوعة تنعكس إيجابا ـ إن كانت صحيحة وسليمة طبعا ـ على الإنتاج الفكري المعرفي ، وتساهم فعليا في تنمية المجتمع وتطوره ، فإنه لا يسعنا إلاّ أن نذكر بتلك العلاقة المعرفية الغير منطقية في الكثير من الأحيان ، بل لنقل القطيعة المعرفية بين ما يُنتج من معارف ـ **مكدّسة ومهمّشة** ـ في مكتباتنا الجامعية في شكل رسائل جامعية تدعو إلى التمحيص والتدقيق فيها ، وإلى إعادة النظر في مضامينها ـ **ليس من باب التقليل من أهمّيتها** ـ بل لأن هناك دراسات هامة فعليا طرحت العديد من الأفكار حول ظواهر اجتماعية مختلفة ، آنية بالخصوص...

فكثيرا ما لمسنا تواجد أبحاث قيّمة جدا ارتبطت بمواضيع وظواهر وقضايا مجتمعية واقعية بدءا بالسياسية منها ووصولا إلى التربوية..لكنها مهمّشة ولم نستفد منها فعليا في تنمية المجتمع...؟

في مقابل ذلك أيضا تُطرح مسألة التكوين المعرفي التي تبقى أساسية في اعتقادنا ، إذ أنه وفي هذه المرحلة بالذات ـ مرحلة التعليم الجامعي الافتراضي والعولمة المعرفية والفكرية الرهيبة في أبعادها والتي فاقت المنطق والمعقول على

جميع المستويات المادية منها والمعنوية ، والتي اكتسحت بمضامينها الحياة الفكرية التعليمية للجامعة الجزائرية بأبحاث لا تُعد ولا تُحصى لاسيما في ميادين ومجالات وتخصصات علم الاجتماع ، و« أمام التحوّلات التي يعيشها المجتمع الجزائري ومتطلبات القرن الحادي والعشرين والتي تقتضي من الجامعة الجزائرية ضرورة مراجعة أهدافها وهياكلها على النحو الذي يتوافق مع جذرية هذه التحولات ومغازيها ، ذلك أن التطورات السريعة و المتسارعة في التكنولوجيا ومطالب السوق مصحوبة بالطبيعة المتغيرة للتكوين الاجتماعي الجزائري تقتضي اتساعا ومرونة في المهارات والتوجهات أكبر بكثير من ذي قبل ، من هنا يتحتم على الجامعة خصوصا مسؤولية إعادة النظر في فلسفتها وبرامجها وتنظيماتها الحالية وذلك لتحقيق المطالب التي تمليها التنمية المستدامة في ثوبها المجتمعي الجديد(6).

ففي مقابل كل هذا ، يستلزم على الباحث الاجتماعي أيضا إعادة النظر في نوعية الممارسة السوسيولجية المعتمدة لأهميتها من جهة ، ولقدرتها على تقديم معارف سوسيولوجية جديدة منبعها الرئيسي واقع اجتماعي معطى فعليا ومتجدد باستمرار ، يعيد بناءه انطلاقا من علاقته المباشرة بت دون أي وسائط فكرية جاهزة أو مستهلكة...

ويبقى الإنتاج الفكري المعرفي السليم في النهاية مهمّة فردية وأحيانا جماعية من خلال الكثير من الأبحاث التي تنتج في المخابر يبرز فيها مدى تحصيل واستيعاب مجموع المعارف المكتسبة ، ومستوى التحكّم في قدراته ومهاراته المتنوعة التي اكتسبها طيلة التكوين والتأهيل العلمي بعيدا عن الاستهلاك المعرفي شكلا ومضمونا ، وبالأخطاء المعرفية الموجودة في الكثير من البحوث التي يستعين بها ، والتي تحوّل ممارسته البحثية إلى إعادة تكرار النماذج المستعان بها ، بل أخطر من ذلك أن كثيرا من الباحثين يستعينون بأبحاث سابقة في نفس المجال ، لتتحول ممارستهم البحثية إلى إعادة تكرار النموذج المستعان به مع تكرار نقاط الضعف الواردة لأن الهدف الأساسي بالنسبة لهم هو الحصول على أكبر قدر من المعلومات في أقصر فترة زمنية ممكنة دون مراعاة الشروط العلمية لإنجاز البحث ، فيتحول البحث إلى عملية « **استنساخ** » فكري حقيقي غير متكامل مما يؤدي إلى قطيعة معرفية بين ما هو نظري وبين واقع اجتماعي له خصوصيته الاجتماعية والثقافية من جهة ، ومن جهة أخرى جمع وتكديس الأفكار الإلكترونية المتعدّدة الأطروحات والمتنوعة التوجهات ، والتي أنتجت عجزا فكريا تنمويا حقيقيا أنعكس على وضعية البحث السوسيولوجي الجزائري...

إذ كثيرا ما نلاحظ كباحثين هذا الشكل المتكرر من الأبحاث شكلا ومضمونا دون إدراك لمواقع الأخطاء الواردة نتيجة استهلاك معارف عديدة ولا محدودة من مواقع إلكترونية مختلفة ارتبطت بواقع افتراضي قد يجعلنا دائما نطرح فكرة «ما يجب أن يكون» دون تمحيصها والتدقيق في مضامينها لاسيّما **المؤدلجة** منها الخاصّة بمجالات علم الاجتماع ، وهوما سيقود في الغالب إلى تجسيد قطيعة معرفية حقيقية بين ما استهلك الباحث من معارف وبين ما يطرحه الواقع من ثقافات متنوعة تفاعلت مع أخرى دخيلة وطرحت تناقضات وصراعات نفسية اجتماعية كثيرة خصوصا تلك المرتبطة بالطابوهات التي تعجز الكثير من المعارف المستهلكة وبمقارباتها المختلفة طرحها وتحليلها لأنها تعكس خصائص ثقافية محدّدة المعالم ومحدّدة في الوقت ذاته للهوية الاجتماعية الجزائرية للأفراد l'algerianité ... بل قد تتحول بعض الأبحاث في الكثير من الأحيان إلى مجرد أفكار سوسيولوجية «**سعيدة**» في غالبها يستحيل إسقاطها واقعيا...

إننا نؤكّد على أن أي عملية بحثية تفضي في النهاية إلى منتج علمي معرفي مهما كانت طبيعته ومجاله وحتى وإن كان بسيطا أو مصغّرا ، يعكس في النهاية **(أي المنتوج)** فعلا علميا ذا قيمة معرفية ، وبالتالي مشروعية ممارسة نوع من التفكيرية عليه بالمعنى البوردي للكلمة «la réflexivité de Bourdieu» عليه...

ليبقى الهدف الأساسي من كل هذا محاولة المساهمة في تأسيس فكر علمي سوسيولوجي معرفي نقدي موضوعي بالأساس...

ثالثا ـ الممارسة السوسيولوجية وضرورة امتلاك الراهن المجتمعي:

يرتبط نموالمجتمع إلى حد كبير بمدى النجاح المحقق في مجال تحديثه ، وإرساء قواعد نهضة فكرية وثقافية حقيقية ، وتعني عملية التحديث تجاوز البنى الاجتماعية التقليدية والعلاقات البالية المرتبطة بها.ويمر ذلك بالضرورة من خلال تحرير الأفراد والجماعات من قيود القيم والمعايير القديمة ، والتصورات الجامدة الناتجة عن قرون من الانحطاط الفكري والتخلف الاجتماعي لأن ذلك يفتح الطريق أمام حرية المبادرة والتعبير الحر والتفكير النقدي الجريء..هي دعوة لإطلاق قوة الإبداع الكامنة في المجتمع وتحرير الفكر من القيود ـ مهما كانت طبيعتها ـ للتمكن من صياغة تصورات حداثية ملائمة لمواجهة تحديات العصر...(7).

راهنا الكل يتحدث عن التحولات البنيوية العميقة التي يشهدها المجتمع الجزائري ، وعن الأزمات الهيكلية المختلفة التي تعرفها مختلف هذه البنيات ، ومختلف الشروخ الاجتماعية و الهامشيات الجزئية الكامنة منها والظاهرة والتي

باتت من أولويات الهم البحثي السوسيولوجي ، لذا نعتقد أنهمن الضروري في هذه المرحلة التاريخية البحث في العلاقة الجدلية بين ما ينجزه الباحث السوسيولوجي من أبحاث علمية معرفية في علاقتها بالواقع الاجتماعي ، وإن كانت تشكّل مركز اهتمام أومجرد تكرار لمعارف مستهلكة أو وهمية تُهمّش وتُغيّب فيها الحقائق المجتمعية التي نقترب فيها أكثر من الواقع الاجتماعي وننتج مفاهيم خاصة بعيدا عن تكرار واستهلاك نماذج بحثية عامة...

ففي ظل عولمة فكرية رهيبة فاقت المنطق والمعقول وفرضت منطق البحث الجاد وسلامة اللغة البحثية في مقابل توفير كل الإمكانات اللاّزمة لتحقيق النتائج العلمية المتوصل إليها من خلال البحوث المنجزة قد يحق لنا التساؤل عن وضع علم الاجتماع ومجموع الأبحاث العلمية السوسيولوجية المنجزة والتي تشترك مع الآخر الغربي منه والعربي في طبيعة المعارف المكتسبة وتختلف في اعتقادنا في نوعيتها...

هذا الاختلاف هوجوهر القضية المطروحة لأنه يعكس واقعا علميا وبحثيا ، يحاول فاعلوه الاجتماعيين إن كانوا أساتذة باحثين أوطلبة إنجاز كمّ هائل من البحوث العلمية وتقديم إنتاج فكري ومعرفي يدعو فعليا إلى ممارسة فعل نقدي إبستمولوجي على مضامينه للتأكد من مدى سلامته ونجاعته وبالتالي مساهمته في تنمية المجتمع الذي يعيش تغيّرات عميقة وعلى جميع المستويات...

فالاعتماد على مضامين معرفية مختلفة الأطر المرجعية والإيديولوجيات اللاّعلمية تعني بالضرورة الوقوع في انزلا قات واختلالات معرفية تؤدي بالضرورة إلى إنتاج معرفي غريب وهش على جميع المستويات ، ضف إلى ذلك وهو الأهم في اعتقادي أن عدم دراية الباحث دراية كافية بالمجتمع المدروس سيجعله يعيش حالة توتر وتردد ولا استقرار فكري ...

وقد تبدو هذه الانتقادات شكلية لكنها في اعتقادي محور المشكلة العلمية المطروحة لأن كل هذا الإنتاج المعرفي« المكدّس» في مكتبات الجامعة الجزائرية يجعلنا في حالة قلق معرفي متواصل ، وفي تساؤل دائم ومستمر عمّا قدّم البحث السوسيولوجي للمجتمع الجزائري طيلة الفترات التاريخية التي مرّت بها الجامعة الجزائرية أو بالأحرى ما طبيعة العلاقة المؤسسة بين علم الاجتماع بتخصصاته المختلفة وأبحاثه المتنوعة ظاهريا وبين المجتمع الجزائري... ، وهل ساهم في طرح وتحليل و« معالجة» الكثير من القضايا والمشاكل الاجتماعية بجميع أبعادها أم بقي منحصرا في المرحلة الأولية له ـ مرحلة التأمل البحثي والإنتاج الفكري المحدود ـ

مثلما أُريد له أن يكون في مختلف مراحل إنجازه بالجامعة الجزائرية ، وبالإيديولوجيات السياسية والفكرية المختلفة التي أثرت على مضامينه العلمية الحقيقية ، وجعلته بحثا مؤدلجا بامتياز.والأكيد مهمّشا وبامتياز أيضا... ؟

في هذا الإطار يطرح إشكال ثان هام جدا وهو نوعية التكوين المعرفي الذي تلقّاه الباحث ، قراءاته ، عالمه السياسي والثقافي والديني ، قدرته على فهم واستيعاب واقعه المعطى ، مدى اقترابه من هذا الواقع وبالتالي تقديم مقاربات سوسيولوجي جادة ...وهي معطيات هامة جدا تؤثر بشكل أبآخر على نوعية المعارف المنتجة والمرتبطة بشكل أساسي بالواقع منطلقا في ذلك من رؤية سليمة وفحص دقيق وعلاقة جدلية مؤسسة مع الواقع البحثي بعيدا عن السطحية والبساطة في الوصف والطرح والتحليل لأن تنمية المجتمع تتوقف إلى حد كبير على ما سيطرحه من أفكار وتأويلات وبالتالي على مجموع قوالب فكرية نقدية مبنية على فهم حقيقي للمجتمع الجزائري ولخصوصياته...

نعتقد وأمام كل ما طرح أننا فعلا نعيش أزمة فكرية سوسي ولجية معرفيّة حقيقية من خلال سوء توظيف المعارف المستقاة من الفضاء الخارجي بشقّيه الواقعي والافتراضي ، في حين أن البديل هوكي يمكن استغلال هذه المعارف وتوظيفها لخدمة البحث والوصول إلى نتائج علمية معرفية تخدم المجتمع والفرد والجامعة في الوقت ذاته...

إن الباحث السوسيولوجي مطالب بسبر أغوار المجتمع وفهم آليات سيره وعلى جميع المستويات بدءا بالسياسية منها ووصولا إلى الثقافية والتربوية لاسيما المجالات المغلقة التي كثيرا ما ارتبطت بالطابوهات ، شرط تحرير فكره من أي تبعية كانت حتى يساهم في تحقيق تنمية مجتمعية حقيقية...

فهل من المنطقي أن يبقى البحث السوسيولوجي بفروعه المختلفة رهين قوالب فكرية جاهزة مستهلكة لمجموع معارف علمية أنتجت في مجتمعات مختلفة جذريا عن مجتمعنا بما فيها المجتمعات المحلية العربية ، بعيدة عن مواكبة التغيّرات المجتمعية وإفرازاتها الخطيرة في الكثير من جوانبها والمؤثرة في الحياة الاجتماعية للأفراد...

إن العلاقة بين عالم الاجتماع والمحيط في هذه المرحلة التاريخية بالذات شبه منعدمة ، مبنية سلفا ، تحكمها أفكار مسبقة وعلاقات محدودة عقيمة التفاعل ، ومنعدمة الجدال ، بعيدة عن أي استثمار فكري معرفي يخدم الطرفين ، بل أخطر من ذلك مؤشر حقيقي« أي العلاقة »لواقع كان من المفروض أن يمتلكه الباحث وأن

يحوله إلى فضاء علمي بحثي معرفي ووجود حقيقي لا وهمي محكومة بالصدفة ...

خاتمة

وفي النهاية ينبغي أن نؤكد على أن مجموع الاشكالات المطروحة هي محاولة جادة نسعى من خلالها إلى إعادة التفكير جدّيا في إعطاء القيمة العلمية والمعرفية للبحث السوسيولوجي إيمانا منا بقدرته الفعلية على تحقيق تنمية مجتمعية حقيقية... ، وأن الباحث السوسيولوجي الهادف إلى تأسيس معرفة علمية واقعية يجب أن يؤمن بقدرة هذا العلم على تغيير المجتمع ، وعلى الكشف عن الحقائق الاجتماعية من خلال ممارسة سوسيولوجية معرفية نقدية حقيقية منتجة لخطاب علمي لمجتمع يرزح تحت جملة تناقضات وتحولات ، وليس بآلة لإعادة إنتاج ما استهلك من معارف...

إننا نبحث ، وفي الوقت ذاته نعيد بناء واقع مجتمعي انطلاقا من مجموع قراءات ومعارف علمية معرفية مستقاة ساهمت في تكوين خيال سوسيولوجي معرفي دفعنا للبحث أكثر في مواضيع وقضايا مختلفة بشكل موضوعي بعيدا عن أحكام مسبقة كثيرا ما تحكّمت في سلوكياتنا... ، وصياغات ثقافية سائدة غالبا ما كانت نقطة بداية خاطئة للكثير من البحوث العلمية والمعرفية... ، سطحية بالدرجة الأولى... ، بسيطة...لم تتمكن قط من مسائلة الواقع المجتمعي ولا من مقاربته علميا ، ولم تتمكن من فهم آلياته التي تشكّل ولا يزال منها النسيج المجتمعي...

لكي نبحث في قضايا مجتمعنا فعليا ، فإننا نعتقد أنه حان الوقت للابتعاد عن الكثير من الأحكام المسبقة التي تضع الباحث السوسيولوجي في موقف دغمائي يقوم من خلاله بفرض تصوراته على الواقع في شكل قوالب جاهزة غير قابلة للتعديل ، مما يؤثر سلبا على نوعية المعلومات التي يجمعها... وقد يكون الأمر مخالفا لدى البعض الآخر حين يحاولون البحث فبالواقع بشكل عفوي أوتلقائي بسبب الجهل بالواقع وبحيثياته المختلفة ، وفي ظل انعدام العلاقة الجدلية بين ما يُكتسب من معارف وبين ما هو معطى واقعي..مما يجعل الكثير من النتائج البحثية المتوصل إليها لا تعبر فعليا وواقعيا عن حقائق الظواهر المدروسة بل وتعيق تفسير وتحليل الكثير من المضامين والمعاني الاجتماعية الخفية منها بالخصوص...

وأيضا سلوك بحثي يعكس هروبا غير معلن وغير واع من الواقع الاجتماعي أين يشعر فيه الكثيرون بأنهم غير مؤهلون للتعامل معه وبالتالي لا يدركون ولا يفهمون معاني ودلالات ما يقع أمامهم من تغيرات ومن أحداث...

نقطة هامة أيضا ومثيرة في ظل ما طُرح وهي أن علم الاجتماع وفي هذه

المرحلة التاريخية الخطرة المسار ، مطالب بعملية مراجعة كلية لأدواره ووظائفه ، والاتصال المباشر والجدلي بالمحيط الاجتماعي لكي ينتج فكرا علميا واقعيا ونوعية جيدة مرتبط أساسا بطلب اجتماعي جماعي بعيدا عن أي خيال علمي فكري مستورد افتراضيا ، كما أنه بحاجة فعلية إلى تحقيق فكر علمي نقدي واقعي بعيدا عن أي خطاب فكري هش أو تبعية سياسية غايتها الأولى تبرير الوضع الاجتماعي القائم لاسيما وأن هذا الواقع يعرف تغيّرات عميقة التأثير على المؤسسات المجتمعية...

بل إن قراءات تحليلية علمية للآلاف من الأبحاث المنجزة البسيطة منها والأكثر تعقيدا تدعو فعليا إلى وعي سياسي حقيقي بأهميتها ومحاولة الاستفادة منها...

في النهاية ينبغي أن نؤكد على نقطة جوهرية من خلال مجموع الإشكالات المطروحة والتي نعتبرها محاولة فكرية نقدية جادة في إطار إعادة النظر في علاقة علم الاجتماع بالمحيط الاجتماعي وبقدرة مجموع المعارف المتداولة المكتسبة منها والمنتجة على تنمية المحيط الاجتماعي ، وعلى الكشف عن الحقائق المجتمعية من خلال ممارسات سوسيولجية نقدية حقيقية منتجة لخطاب علمي معرفي حول مجتمع يرزح تحت جملة تناقضات وتحولات ، وليس بآلة لإعادة إنتاج ما استهلك من معارف...

مراجع المقال

1 ـ إبراهيم تهامي:أي جامعة تحتاج الجزائر في ظل عولمة القرن الحادي والعشرين ، في مجلة الباحث الاجتماعي ، العدد الرابع ، جامعة قسنطينة 2003 ، ص 49.

2 ـ عنصر العياشي: نحو علم اجتماع نقدي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر1999 ، ص 70.

3 ـ عبد القادر لقجع وآخرون:علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر ، دار القصبة للنشر والتوزيع ، 2004 ، 15.

4 ـ أيميل دوركايم : قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة ، الجزائر ، دار موفم للنشر ، 1990 ، ص1.

5 ـ عبد الله محمد عبد الرحمان:سوسيولوجيا التعليم العالي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1991 ، ص 215.

6 ـ إبراهيم تهامي ، نفس المرجع السابق ذكره ، ص 49.

7 ـ عنصر العياشي:سوسيولوجيا الديمقراطية والتمرد بالجزائر ، القاهرة ، دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، 1999 ، ص 53.